بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[فاطر : الآية ١٠]

بهذا الفصل نصل إلى نهاية هذه الدراسة ، التى قصدنا من ورائها إجمال فضائل الإسلام فى عشرين موضوعاً اخترناها كلها من القرآن الكريم ، والحديث فى فضائل الإسلام يمكن أن يمتد بنا إلى غير نهاية ، فما من خير فى النفس أو فى الكون ، داخل الإنسان أو خارجه ، إلا وجدناه فى الإسلام ، ووجدنا فى القرآن آيات بينات تؤيده بأجلى بيان ، وأظن أن فيما كتبناه من الفصول ما يكفى لإطلاع المسلمين ، وخاصة الشباب ، على الفضائل الكبرى التى يتميز بها دينهم العظيم ، ورسم طريق العزة والقوة والتوفيق أمامهم عن طريق الفهم الصحيح للقرآن ، والاستمتاع بما تضمه آياته من عظائم المعانى وروائع التعبير المحكم الصادق البليغ عن كل معنى شريف .

وإذا كنت مسلماً صحيح الإسلام ، فإنك لابد أن تكون محزون القلب على أحوال المسلمين اليوم ، فقد أخذوا أعظم هدية أهداها الحق سبحانه وتعالى للناس ، ولم ينتفعوا بها ، وكان فى إمكانهم أن يصلوا بها إلى قمة العزة والقوة

والنجاح فى هـذه الدنيا والآخرة ، لـو أنهم صدقوا فى إيمانهم وعملـوا بما تتضمنه العقيدة الإسـلامية من هـدى رشيد ، ولكننـا مع الأسف البالغ ضيعنـا الجوهرة الغالية ، وقنعنا بعد ذلك بالتراب .

والعجب مع ذلك أن تجد المسلمين يلقون المسئولية فى ذلك التخلف الذى هم فيـه ، على الآخـرين ، وقـد ضمنـى منـذ حين مجلس دار الحديث فيـه عن المستشرقين ، فتبارى القوم فى الحملة عليهم ، كأنهم هم المسئولون عما تعانيه أمم الإسلام ، ولم أشترك فى المنـاقشة لأننى أحسسـت أننى فى واد وأصحابنـا أبطال الحملـة على المستشرقين فى واد ، وأنـا أعـرف معظم مـا كتـب المستشرقـون عن الإسلام . ولكن لا ألـومهم على شىء مما كتبوه ، لأن الواقـع أنهم لم يكتـبوا لى ولا لأحـد من المسلمين ، ولكـن لأقـوامهم ، والغـالبيـة العظمـى من أهل الاستشراق لا يؤمنون بـالإسلام ، وقراؤهم مثلهم ، ومادامو جميعاً كفـاراً يديرون الكلام فيما بينهم ، فما شأننـا بهم وبما يقولون ؟ ومـادام الإنسان كافراً بـالإسلام منكراً لحقيقته ففيم نلومه ؟ وفى أكثر من آية قرآنية يأمر القرآن رسولنا ﷺ أن يدع الكفار فى غيهم فما هو بمستطيع هداية إنسان واحد إلا أن يريد الله .

ولكننى ألوم المسلمين ، لأنهم إلى يومنا هذا لم ينتبهوا لفضائل الإسلام ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون بها ، وقد رأيت أن القـرآن الكريم قد حوى كل أسرار العزة والقوة للمؤمنين به ، إذا عرفوا كيف يفيدون منها كما علمهم رسول الله ﷺ ، فقد كان الـرسول يعرف أن الإسلام إيمان وعلم وعمل ، والإيمان الإسـلامى لا يكون صحيحاً إلا إذا كان إيجابياً أى حافزاً للمؤمن على السير فى الاتجاه السليم و إلتزام الفضائل وطلب العلم والاجتهـاد فى توجيه العلم فى صـالح الحياة ، وأنا عنـدما أقـرأ تفـاسير القـدماء للقـرآن الكـريم أعجب بما بـذلـوا من الجهـد فى تفصيل شكليات العبادات ، ولكنى أتعجب من وقوفهم عند الظـواهر وتركيزهم الكلام على الشكليات ، وعبادات الإسلام قليلـة ، والقيام بها على وجهها يتطلب منك

خلوص النية والصدق مع نفسك ومع الله سبحانه وتعالى ، وأنا منذ وعيت لم أقصر فى حق من حقوق الله سبحانه ، ولا أذكر أن ذلك كلفنى وقتاً يذكر ، لأننى لا أنسى أن الله سبحانه أمرنا بأن نقضى صلاتنا وهى أم العبادات ، ثم ننتشر فى الأرض فى طلب الرزق ، ومن عجب بعد ذلك أن تجد الكثيرين من المسلمين يرجون من الله أن يرزقهم وهم قعود مكافأة لهم على الصلاة والصيام ، وقد فاتهم أن العبادات شىء وطلب الرزق شىء آخر ، حقاً إن العبادات توجهك إلى طلب الرزق فى الطريق السليم ، ولكن الله سبحانه يرزق كل إنسان على قدر عمله ، حتى لو كان كافراً ، وها أنت ذا ترى الأرزاق الواسعة التى يملكها الكفار فى أيامنا هذه ، وإنه لمن العار علينا نحن المسلمين أن نرضى بهذه الأوضاع التى نعيش فيها ، ولو رآنا رسول الله ﷺ على هذه الحال لما رضى عنا قط ، لأن رسول الله كان يرى أن الإيمان والعزة صنوان ، والمؤمن يعزه إيمانه ، وكذلك عمله ، وقد أشرت فيما سبق إلى الآية الثامنة من سورة « المنافقون » التى تقول : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وقلنا إن الله سبحانه وتعالى يعطى رسوله الأمين والمؤمنين الصادقين جانباً من عزته ، والعزة معناها هنا القوة والغنى وارتفاع الشأن ، ولو أنا كنا مؤمنين بالإسلام حق الإيمان لكنا أعزة بهذا الإيمان ، وقد كان رسول الله يعز نفسه وأصحابه بالعمل ، وقد أخطأ القدامى عندما قصروا العمل على العمل الدينى أى القيام بالعبادات ، مع أن الأعمال الصالحة تشمل العبادات وكل عمل يؤتى الإنسان خيراً فى هذه الدنيا ، وكان رسول الله آية فى الاجتهاد والعمل ، وكذلك كان أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وإن الانسان لا يصدق أن أبا بكر واصحابة معه استطاعوا القضاء على المتنبئين والمرتدين ، وإعادة وحدة الأمة فى أقل من عام ، وأنا أعجب بالكثير جداً فى أبى بكر وعمر ، ولكن أكثر ما يستدعى الاعجاب فيهما هو ذلك العمل المتصل لما فيه خير المؤمنين ، وكان عمر إلى جانب عباداته لا يكف عن العمل ، حتى إنه كان

ينفق الساعات فى قراءة كتب القواد الذين يقومون بالفتوح ، ويعيد قراءة الكتاب أكثر من مرة ، ولكى يستوعب المعلومات التى يفضون بها إليه كان يرسم بعصا صغيرة على الرمل خرائط المعارك لكى يتصور مواقف المسلمين تصوراً صحيحاً ، وفى بعض الأحيان تحس أنه مع القادة والجنود فى المعارك ، وهذا لا يكون إلا بجهد فكرى بالغ .

ومن أكبر أسباب انتصارات المسلمين الأول هو تمسكهم بالصدق الكامل فى كل مايقولون . ورسول الله ﷺ كان يتحرى الصدق فى كل شىء ، حتى فى معاملته للكفار ، وكان الكفار والمنافقون يكذبون عليه ، وكان يعرف أنهم كذابون ، ولكنه مع ذلك كان لا يعاملهم إلا بالصدق . لأن الصدق قوة كبرى ، وإن أصحابه يصدقون معه فى كل شىء ، وكان يقدر الناس على قدر صدقهم ، والقرآن الكريم امتدح الصدق ، وحث المؤمنين عليه ، ومن أسف أن أمم الإسلام فى العصور الماضية نسيت الصدق ، وتعاملت بالخداع والكذب ومن منتصف العصر الراشدى دخل الكذب حياة المسلمين ، ومع الكذب دخل الفقر والضعف ، وقد رزق الله أمة الإسلام فى عصر الفتوح من الأموال مالم يكن يخطر على بال مسلم ، ولو أن أمة الإسلام شكرت الله سبحانه بالصدق فى المعاملة لما نزلت بها مذلة أبداً . وقد عرف عمر بن الخطاب فضل الصدق ، وحث الأمة على التزامه . وإذا نحن قرأنا خطاباته إلى عماله وقادته تبينا أن عمر ابن الخطاب وجيله من الصحابة قد بلغوا مابلغوا من النصر والسيادة بفضل ما آتاهم الله من الإيمان العميق بالله وحرصهم على الفضائل ، وإن الإيمان العميق والتمسك بفضائل الإسلام كان فى الحقيقة سبب تلك القوة الهائلة التى جعلتهم أقوى من أى عدو لقيهم مهما كان سلاحه . فاقرأ مثلا الكتاب التالى الذى بعث به عمر بن الخطاب إلى قادته فى معركة اليرموك ، والخطاب وارد فى كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى قال : عن سماك قال : سمعنا عياضاً الأشعرى قال :

شهدنا اليرموك وعلينا خمسة أمراء : أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وعياض ـ وليس عياض هذا بالذى حدث سماكاً ـ قال : قال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة : قال : فكتبنا إليه : إنه قد جاش إلينا الموت [**يريد أن الأعداء تجمعوا عليهم وهو يخشى أن يقضوا على المسلمين**] واستمددناه . فكتب إلينا : إنه جاءنى كتابكم تستمدوننى ، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً : الله عز وجل ! فاستنصروه . فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى ! قال : فقاتلناهم فهزمناهم) .

فانظر إلى هذا الرجل العظيم ثقته فى الله وإيمانه الذى لا يتزحزح بأنه سبحانه ناصر من ينصره ، وهو يقول لرجاله وهم يواجهون الموت فى معركة دامية : لا تستنصرونى أنا ، فإننى لا أملك لكم نصراً ، ولكن استنصروا الله سبحانه ، فهو العزيز ذو القوة ، وهو أعز نصرا وأحضر جنداً ، ثم يضرب لهم المثل الخالد : مثل انتصار رسول الله وأصحابه يوم بدر وقد كانوا أقل عدة من المسلمين يوم اليرموك ، ولكنهم كانوا أعزة بإيمانهم ، وهم عندما آمنوا بالله إيماناً صادقاً أعطاهم جل جلاله جانباً من عزته ، فإن العزة لله وحده ، وهو يهب منها ما يريد للمؤمنين الواثقين ، وتصبح العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ثم ينصح رجاله باستنصار الله سبحانه ويقول لهم : إنه لن يرسل إليهم أحداً فعليهم لقاء العدو دون أن يراجعوا عمر ، ففعلوا ونصرهم الله النصر المؤزر ، وإنما نصرهم الله بإيمانهم العظيم . وتلك هى الروح التى ينبغى أن يواجه المسلم بها مشاكله ، فهى مهما عظمت لا تثبت للإيمان الصادق ، وهذا هو الذى ينقصنا اليوم ، فنحن اليوم نقف عاجزين أمام المشاكل ، لأن قلوبنا فى الحقيقة خالية من الإيمان الحقيقى .

وفى خطاب آخر من عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : (إنى قد ألقى

فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هـزمتموه ، فاطـرحوا الشك وآثروا التقيـة عليه . فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفـه بإشـارة أو لسـان كان لا يدرى الأعجمى ماكلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مجرى الأمان . وإياكم والضحك . الهوفاء الوفـاء فإن الخطأ بالـوفاء بقية . وإن الخطأ بـالغدر الهلكة ، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم . واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شَيْناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم .

وهذا الخطاب القصير من عمر بن الخطـاب إلى قائده سعد بن أبى وقاص يضم من جلائل الفضائل الإسلامية التى تميز بها هذا الرجل العظيم وجيله ماهو جـديـر منا بأن نفصلـه تفصيـلاً ، فإننى لا آتى بهذه الأمثلـة رغبـة منى فى مجرد التمدح بالماضى كما يفعل الكثيرون منا ، وإنما أنـا أريد منك أن تقف منه على جوانب القوة والعزة التى يودعها الإسلام فى قلوب المؤمنين الصادقين به ، وإليك تفصيل الحكمة العمـرية التى ضمنها هذا الـرجل فى خطابه قائلاً لسعـد : إنه يحس إحساساً عميقـاً بأنهم إذا لقوا العدو هزموه . ولهذا فهو يـوافيهم بنصائحه التى ينبغى أن يسيروا عليها بعد النصر حتى يستمروا منصورين إن شاء الله .

فعليهم ألا يشكوا أبداً فى أن الله ناصرهم ، وبدلاً من الشك فإن عليهم أن يملئوا قلوبهم بتقوى الله . والتقوى هنـا ليس معناها التقية أى الخوف من الله . فإن المؤمن الحق يحب الله ، وهو عنـدما يقول إنه يخافـه يريد أن يقول إنـه يحبه ، فكأن عمر يقول لهم : إن خير مايفعلونه هو أن تمتلىء قلوبهم بمحبة الله فيؤتيهم سبحانه النصر والعزة .

وعمـر يعلم أن المسلمين بعد أن يكسروا قـوة القـرس ويبددوا جيـوشهم ، تنفتح البـلاد أمامهم ويصبح العجـم من أهل العراق وفـارس وجهـا لوجـه مع المسلمين ، وهـؤلاء الأعـاجم خضعـوا لطواغيـت الفرس سيسـارعـون بإعـلان

طاعتهم للمسلمين أملاً فى أن يجدوا العدل عندهم . ولكن أولئك الناس لا يعرفون العربية ، ولا العرب يعرفون العجمية ، ولهذا فإن تفاهم العرب مع الأعاجم سيكون بالإشارة ، وستصدر عن أولئك الناس إشارات باليد ، أو ستصدر عنهم كلمات معناها أنهم يريدون الأمان مع العرب ، فعلى العرب أن يعتبروا أى إشارة تصدر من أولئك الناس ، ومعظمهم فلاحون فى القرى ، طلباً للأمان ، وواجب العرب أن يؤمنوهم فى الحال .

ثم يحذر عمر المسلمين من الضحك والسخرية بالناس ، فإن أولئك الناس عانوا من ظلم حكام الفرس الكثير ، ولهذا فإن الفزع سيصيب الكثيرين منهم ، فتصدر عنهم أعمال فيها بعض ما يضحك ، وحذار من الضحك فى أمثال هذه المواقف ، فإن معناه أن العرب يستخفون بالناس ، وهذا الاستخفاف بالضعفاء الخائفين ليس من أخلاق المسلمين ، ولهذا فإن عليهم احترام أولئك الناس وإقناعهم بالتصرف الحسن الكريم . إنهم يمثلون الإسلام ، وهو جامع فضائل الإنسانية ، وفيه عز لكل من دخل فيه .

ثم يأمر عمر المسلمين بالوفاء ، لأن الوفاء فضيلة إسلامية وإنسانية ، والمسلم الصادق لا يمكن إلا أن يكون وفياً .

وحتى لو كان الوفاء خطأ ، وتبين بعد ذلك أن أولئك الناس الذين وفى لهم كانوا مخادعين ، فإن وفاء المسلمين بعهودهم فيه بقاؤهم مهما كانت النتائج .

وإذا أخطأ المسلمون وغدروا كان فى ذلك هلاكهم ، والغدر ضعف غير لائق بالمسلمين ، وفيه ضعفهم وقوة عدوهم .

وإذا غدر المسلمون بالناس انهزموا بعد ذلك ، وذهبت ريحهم ، وانتصر عليهم الأعداء وأقبلت ريح أولئك الأعداء .

ثم يحذر المسلمين من مغبة الغدر والخيانة ، ويرجوهم ألا يكونوا عاراً على

أمة الإسلام وسببا من أسباب ضعفها .

فانظر والله إلى هذا العقل العمرى العظيم الذى أعزه الله بالإيمان ، وفاض قلبه بالعزة ، حتى ليبلغ من روح الجد عند هذا الرجل أن يقول للمسلمين إنهم إذا لم يكونوا صادقين معتزين بدينهم متمسكين بفضائله ، ذهب أمرهم وغلبهم غير المسلمين .

وقد تحدثت فى بعض فصول هذا الكتاب عن الإسلام والعلم وقلت : إن المسلم الحق لا يصح أبداً أن يكون جاهلاً ، فإن القرآن علم ، والإسلام علم ، والعلم هو قوة الإسلام الكبرى ، وسآتيك الآن بخطاب من عمر بن الخطاب تتبين منه حرصه على العلم ، وهو فى هذا الخطاب لا يطلب أى علم ، بل يريد العلم الدقيق المفصل حتى يتصرف على ضوء هذا العلم .

كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : أما بعد . . فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والقوة والحسبة ، ومن غفل عنها فليحدثها (أى أن المسلم إذا أحس أنه غفل عن الموعظة والقوة واحتساب أعماله كلها فى سبيل الله فليذكر نفسه بذلك وليعد إلى الإيمان السليم) والصبر الصبر ! فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر . . على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . واكتب إلى أين بلغ جمعهم ؟ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتهم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ولا تدل بشىء ، واعلم أن الله وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر (أى للإسلام) بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم .

فعمر هنا يعتمد فى تصرفه على خصلتين إسلاميتين أساسيتين : الإيمان الكامل بالله سبحانه ، ثم بالعلم ، وهو هنا لا يطلب من سعد بن أبى وقاص أى علم ، بل العلم الكامل بالجبهة وما فيها ، فهو يطلب إلى سعد أن يصف له البلاد التى يحارب فيها وصفاً بالغ الدقة ، صفة كأنه ينظر إليها ، ويجعله من أمرهم على الجلية ، وهو هنا يطلب تقريراً مفصلاً يتصرف على ضوئه ، وعمر هنا يتحدث بلسان رجل من أبناء عصرنا وهو عصر العلم ، وهو يعلم أن النجاح فى الحياة لا يكون إلا بالجد البالغ والعلم الدقيق ليكون التصرف على أساس من العلم ، وهو يحذر المسلمين فى آخر خطابه ألا يتخلوا عن الإيمان الصادق الكامل ، لأنهم إذا فعلوا ذلك انصرف عنهم الله سبحانه ، ونظر إلى قوم غيرهم .

ونحن اليوم نعيش فى عصر الإيمان والعلم ، ولا يقعن فى بالك قط أن الأمم القوية السائدة فى عصرنا غير مؤمنة ، إنهم يؤمنون بأنفسهم وبما يعلمون ، والروس الذين نقول إنهم لا يؤمنون بالله ، يؤمنون بأشياء ثلاث لا شك عندهم فى أنها أساس قوتهم ومصدر عزهم وسبب المكانة الرفيعة التى يتمتعون بها فى عصرنا .

فهم يؤمنون بروسيا وطنهم إيماناً لا يصدق : وأمة الروس كلها مستعدة للموت فى سبيل شبر واحد من أرضهم ، ومساحة روسيا الشاسعة محاطة فى كل جانب بالجيوش والأسلحة والحصون والجنود الذين يقفون وراء الحدود جادين كل الجد ، وفى أى ساعة من ساعات الليل والنهار مررت بحدود روسيا رأيت الجنود من ورائها على الأهبة ، وقد حدث من ثلاث سنوات أن طائرة من كوريا أخطأت واجتازت المجال الجوى الروسى ، فأسقطت فى الحال دون رحمة .

وقد رأيت فى لندن فيلماً تسجيلياً عن روسيا صوروا فيه الحدود وما وراءها

من الجيوش والجنود والأسلحة ، وما يدلك على أن هؤلاء الناس يأخذون الحياة بجد لا نعرفه نحن . وهم يحدثوننا بأن الروس يعيشون فى ضنك فى بلادهم ، وهذا غير صحيح .

فكل الروس فخورون اليوم بالقوة التى وصلت إليها بلادهم ، وأنت ترى شبابهم فى ملاعب الرياضة يتهالكون فى الفوز بالمراتب الأولى فى كل لعبة ، وهم يصلون إلى الميداليات الذهبية والفضية بصورة تستوقف النظر ، بينما العالم العربى كله لا يفوز إلا بأشياء لا تذكر ، وقد دعونا فى روسيا إلى ناد رياضى يتدرب فيه الشبان ، فتعجبنا من الجدية والإخلاص والتفانى ، وسألنا إن كان أولئك الشبان ــ ما بين بنين وبنات ـ يعفون من شىء من مطالب الدراسة فى مقابل هذه الجهود التى يبذلونها فى التدريبات الرياضية ، فعلمنا أن أولئك الرياضيين يقومون بدراستهم قياماً كاملاً لا يعفون من شىء منها ، وأن الذى يدفعهم إلى هذا الاجتهاد **هو حبهم لوطنهم الروسى** .

والأمر الثانى الذى يؤمنون به هو العلم : فإن المدارس والجامعات والمعاهد الفنية والتكنولوجية فى روسيا تقوم بعملها على الوجه الأكمل ، وهم لا يدللون أولادهم أو شبابهم على النحو غير المقبول الذى نعمله نحن ، فنحن نفضل أولادنا على أوطاننا ، أما هناك فإن الوطن والعلم أفضل من الأولاد ، وليس عندهم سقوط ولا ملاحق ، وإنما يفرغ الولد من المدرسة الابتدائية ، ويتجه بعد ذلك إلى المرحلة الوسطى ، التى تقابل الإعدادية عندنا ، وهناك يوضع تحت الاختبار ، فإذا استطاع أن يسير فى سنوات المرحلة الوسطى كان بها وسمحوا له بدخول الثانوية ، وإلا فإنهم من تلقاء أنفسهم يحولونه إلى معهد صناعى أو زراعى ، وبعضهم ينقل إلى مراكز تدريب فنية ، فيتدرب على نوع من الأعمال والدراسات الفنية فى الزراعة أو الصناعة ، والمزارع هناك كلها متطورة تعمل بالآلات ، والأولاد الذين يعجزون عن السير فى الدراسة الوسطى أو

الإعدادية ، يتدربون على أعمال الزراعة والرى وتسيير الآلات الزراعية ، وذلك التوجيه لا يضايقهم فى شىء ، فإنهم هناك يريدون أن يعملوا فى الميدان المناسب لملكاتهم ، فهناك يشعرون بالراحة والاطمئنان ، ولا فرق عندهم بين عامل وطالب ، وكلهم يعرفون ذلك ويعملون على أساسه ، بل إن شباب المزارعين فى القرى والمزارع أحسن حالاً من طلاب المدارس ، والفروق الاجتماعية موجودة ولكن أهميتها قليلة ، والعمال فى المزارع يتدربون ويجدون الطعام بين أيديهم ، ثم إنهم لا يجدون صعوبات فى العثور على المساكن ، إنهم يعملون فى جد خالص ، ولا ينفقون وقتهم فيما لا يغنى ، إنهم يعرفون أن الشىء الوحيد الذى ينفع فى هذه الدنيا هو العمل النافع لهم ولغيرهم ، من هنا هم يشعرون أنهم أعزة ، وأنهم أقوياء .

والأمر الثالث الذى يؤمنون به هو العمل النافع لوطنهم :

إننى لم أضرب هذا المثل لأقول إنهم أحسن أو أكثر نجاحاً منا أو من غيرنا إن الذى أريد أن أقوله أنهم يعرفون كيف يعيشون ، وهذا هو الذى أطالب أولادنا به : أن يتعلموا كيف يعيشون بالعمل الشريف ، لأن الطريقة التى نعيش بها لا تغنى ولا تنفع ولا تعيننا على الوصول بالإسلام إلى المكان الذى يستحقه ، لقد أرسل الله إلينا محمداً ﷺ بالإسلام لكى نعز به ونغنى ونقوى ، فقد أودع الله فيه ـ كما رأيت ـ كل عناصر الخير اللازمة للإنسان ، وأجيالنا الأولى وصلت بالإسلام إلى أعز مكان وصل إليه قبلهم بشر ، فكيف هبطنا إلى الدرك السحيق الذى نحن فيه اليوم ؟

وصلنا إلى هذا الدرك لأننا أهملنا العمل الصالح ، والعمل الصالح يتضمن العبادات التى هى الخيط الممدود بيننا وبين الخالق سبحانه ، وتطبيق الشريعة ـ وهى قانون الله للبشر ـ والسعى للرزق الحلال أو التعامل فى المال

بالأخلاقيات الإسلامية . . لا ربا ولا استغلال ولا إسراف ولا تقتير ، وتقديم المال إلى الفقير المحتاج دون تظر إلى جزاء إلا من الله سبحانه ، وبعد ذلك كله علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نتعلم العمل معاً ، فإننا فرديون أنانيون لا يحب الواحد منا إلا نفسه ، ولا ينفق إلا على أهله ، ونحن لا نعيش فى بيوتنا عيشة فاضلة جماعية : الرجل يحب امرأته ويحترمها ويعاملها بالفضل والعدل والإنصاف ـ و الأب يربى أولاده على العزة والكرامة وحب العمل واحترام النفس والغير والتعاون مع الآخرين .

ولأننا فرديون أنانيون فقد استغلنا الأقوياء وسادونا وظلمونا ونهبونا ، ولأنهم نهبونا فقد افتقرنا وتعودنا الفقر وعشنا به وعليه ، ولم نعد نخجل منه ، ولا عيب فى أن يولد الإنسان فقيراً ، ولكن العيب فى أن يموت فقيراً دون أن يصيبه مرض ـ مثلاً ـ يقعد به عن العمل . والله خلق الدنيا للعاملين ، وبث فيها الخيرات للمجتهدين ، ومن عجب أن أهل الأديان الأخرى كلها عرفوا أن العمل الجيد المتقن هو طريق الخير والفلاح فى هذه الدنيا ، فدرسوا علوم الحياة التى أمرنا الله نحن المسلمين بدراستها فلم ندرسها ، وخاضوا معارك الحياة غير هيابين .

وانظر إلى الخريطة ترى أن المسلمين لا يسودون إلا جزءا ضئيلاً من هذه الأرض . لا نسبة إطلاقاً بينهم وبين الأنجلوسكسون ـ وهم الإنجليز والأمريكيون ـ أو الروس واليابانيين أو الألمان والفرنسيين ، وهذا والله عار ، لأن القرآن يقول إن العزة لله جميعاً ولرسوله وللمؤمنين ، فأين العزة أيها المسلمون ؟

إن الإنسان إذا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دخل عالماً واسعاً من الحضارة والرقى ، لأن الإسلام يفتح الباب بينك وبين رب العزة ، ورب العزة بيده مفاتيح الرزق والخير ، فاذكر هذا ولا تنسه أبداً ، فإن الإسلام هو طريقك المنير للخير والكسب وسعادة الدارين ، واقرأ سيرة المصطفى ﷺ

تتأكد من ذلك .

لقد قلت فى هذه الدراسة الكثير من تفصيل الجوانب الحضارية للإسلام عقيدة وشريعة ومكارم أخلاق ، وفيما قلت كفاية لمن آمن وألقى السمع وهو شهيد ، ومن لم ينفع معه هذا القدر من الكلام لم ينفع معه أى كلام ، فإن أبا بكر الصديق أصبح واحداً من أعاظم بناة التاريخ بالإيمان والعلم والعمل ، وليس هذا بالعسير على أى مسلم يريد أن يسير فى طريق الخير ويصل إلى ما يشاء الله فى الخير ، والله سبحانه معك فى كل طريق خير ، فاختر لنفسك ما تريد .

***